شرح النصيحة الولدية

لـ أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي

شرحها فضيلة الشيخ:

صالح بن سعد السحيمي

— حفظه الله ونفع بعلمه —

الدّرس الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله نحمد ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:102].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:70-71].

أَمَّا بَعْدُ : فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي، هدي محمّد - صلّى الله عليه وسلّم - ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النّار.

إخوتي وأحبّتي في الله قبل أن نبدأ درسنا عن وصيّة "أبي الوليد الباجي" لابنيْه، أودّ أن أبيّن لكم أهمّية هذه المقدّمة التي بدأت بها، وهي خطبة الحاجة وقد ثبتت بها الأحاديث الصّحيحة عن النّبي – صلّى الله عليه وسلّم -، قال "عبد الله بن مسعود" – رضي الله عنه -: « كَانَ رسُولُ اللهِ – صلّى الله عليه وسلّم – يُعلِّمُنَا خُطبةَ الحاجَةِ كمَا يُعلِّمُنَا السُّورة من القُرآنَ »، ومن أراد الاطّلاع على الفوائد الجمّة في روايات هذه الخطبة فليرجع إلى كتاب أفرده في تلك الرّوايات ، الشّيخ "محمد ناصر الدّين الألباني" – رحمه الله تعالى – فليُرجع إليه.

وهي خطبة عظيمة فيها التّوحيد، وفيها حمد الله والثّناء عليه، وفيها الأمر بتقوى الله جلّ وعلا، وفيها الحثّ على التمسّك بالكتاب الكريم، وسنّة النّبي – صلّى الله عليه وسلّم -، وفيها التّحذير من البدع والمحدثات،وفيها اللّجوء إلى الله عزّ وجلّ والاستعاذة به من السيّئات، ونحو ذلك من الفوائد العظيمة التي تشتمل عليها هذه الخطبة، فلنبدأ بها أحاديثنا ، ودروسنا ، ومواعظنا، أو بجزء منها على الأقل.

وكان رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – قد يبدأ بها، وقد يبدأ ببعضها، ويخطئ من يظنّ أنّ تلك الخطبة خاصّة بعقد النّكاح كما يتصوّره البعض. نعم عقد النّكاح شأنه عظيم ، فيُبدأ بهذه الخطبة – أعني خطبة الحاجة – كما يُبدأ بها غيره من الأمور المهمّة والمسائل العظيمة، من المحاضرات والنّدوات والمواعظ والتّوجيهات والدّروس والنّافعة، وتُجعل طُرّة للكتب التي تُؤلّف، لعلّ الله تعالى أن ينفع بها افتتاحيّة لتلك الكتب. فأوصيكم ونفسي بالعناية بها .

ثمّ إنّ هذا الكتاب الذي سنشرحه إن شاء الله تعالى، وسأبدأ شرحه في يوم السّبت بعد صلاة المغرب، الموافق للحادي عشر من شهر رجب المحرّم سنة ثلاثين وأربعمئة وألف للهجرة النبويّة، بمسجد (بني سلِمة) المسمّى مسجد (القبلتين) ضمن فعاليّة الدّورة العلميّة الثّامنة، لدورة إمام دار الهجرة الإمام "مالك بن أنس" – رحمه الله تعالى – ، لنا شرف أن تسمّى باسمه إمام دار الهجرة، الذي قيل فيه ((لاَ يُفتَى ومَالكٌ فِي المَدينة)).

وهذا الكتاب هو لعالم من علماء المالكيّة الأجلاّء، وهو : أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي، المتوفّى سنة: أربع وسبعين وأربعمئة للهجرة النبويّة (474 هـــ)، بعد أن خلّف مؤلّفات عظيمة على رأسها كتابه المشهور (المُنتقى) وهو شرح لموطّأ الإمام "مالك" – رحمه الله تعالى –.

وهذا الكتاب الذي نحن بصدده هي وصيّة لولديه ،وهي وصيّة تضمّنت وصايا نافعة في العقيدة، والعلم، والسّلوك، والزّهد، والورع، والعناية بالكتاب والسنّة، وغير ذلك من الآداب الشرعيّة التي لا غنى لطالب العلم عنها.

ونبدأ الآن نشرح، أو نشرع في شرح تلك الوصيّة، ويقرأ المتن أخونا "أبو عبد البر" وفّقه الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرّحيم وبه نستعين، الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على النّبي الأمين، محمد وآله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان على يوم الدّين، أمّا بعد:

فيقول الشّيخ الفقيه الإمام الحافظ أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي –رحمه الله وغفر له ولشيخنا ولنا وللمسلمين – ، في وصيّته لولديْه:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله:

يا بَنِيَّ

هنا بدأ بالبسملة ثمّ شرع بعد الصّلاة على النّبي – صلّى الله عليه وسلّم – في الوصيّة، وتعلمون أنّه يُسنّ البدء أو الختم أو ذكر الصّلاة على النّبي – صلّى الله عليه وسلّم – في الكتب وفي الدّعاء،

وفي الخطب بل إنّها واجبة في خطبة الجمعة، وهي من الآداب التي يُرفع الدّعاء بسببها بإذن الله تعالى، فلنحافظ عليها وفق منهج السّلف، إمّا بالصّلاة الإبراهيميّة المعروفة التي نقرأها في التشهّد، وإمّا بمختصرها وهي جملة – صلّى الله عليه وسلّم – ، بعيدا عن بعض ألفاظ الغلو والجفاء.

قال – رحمه الله –:

يَا بَنِيَّ، هَدَاكُما الله وأرشَدَكُما ووفَّقَكُما وَعصَمَكُما، وتَفَضَّل عَليكُما بخيْر الدُّنيَا وَالآخِرَة.

هَذَا دعاء عظيم لابنيه بالتّوفيق والسّداد والعصمة من المعاصي، والبُعد عنها، والهداية إلى طريق الحقّ؛ لأنّ هذا من أعظم ما يدعو به المسلم لأخيه المسلم، فيكف الأب مع ابنيه ؟

قال –رحمه الله –:

وَوَقَاكُما مَحذُورَهُما بِرَحمَتِه. إِنَّكُما لَمَّا بَلغتُما الحدَّ الذِي قرُبَ فِيه تَعيُّنُ الفُروضِ عَلَيكُما، وَتَوجَّه التَّكلِيفُ إِلَيكُمَا، وَتَحقَّقتُ أَنَّكُما قَد بَلَغتُمَا حَدَّ مَنْ يفهَمُ الوَعظَ، وَيَتَبيَّنُ الرُّشدَ، وَيصلُحُ للتَّعلِيم وَالعِلمِ، لَزِمَني أنْ أقدِّمَ إِلَيكُما وَصِيَّتي، وَأُظهِرَ إِلَيكُما نَصيحَتي، مَخَافةَ أنْ تخترِمَني مَنِيةٌ وَلم أبلُغْ مُبَاشرةَ تَعلِيمِكُما وَتدرِيبِكُما، وَإِرشَادَكُما وَتفهِيمَكُما.

هنا يقول المصنّف –رحمه الله – أنّني عندما شعُرت ببلوغكما سنّا تفهمان فيه الوصيّة، شعرت بالمسؤوليّة الكبرى اتّجاهكما، فكتبت أو أوصيتكما، أو عزمت على أن أوصيكما بهذه الوصيّة، لأمرين:

الأمر الأوّل: بلوغكما سنّا تتحمّلان فيه تلك الوصيّة، ولعلّها والله أعلم سنّ التّمييز، والله أعلم؛ لأنّ المسلم وإن لم يرِد ما يدل على السنّ الذي أوصاهما فيه ، لكن لعلّ أقرب ما يكون هو سنّ التّمييز وقد يكون عشر سنين أو سبع،و قد سكون سنّ البلوغ، لكن الذي يبدو أنّ من بلغ عشر سنين يفهم، ولذلك يقول النّبي – صلّى الله عليه وسلّم –: ((مُرُوا أبنَاءَكُم بالصَّلاةِ لِسبع، وَاضرِبُوهُم عَليهَا لِعَشر، وفرِّقُوا بينَهم فِي المَضَاجِع)) فيبدو أنّهما قد بلغا نحوا من هذه الأعمار، إمّا سبع أو عشر أو سنّ البلوغ الذي يجب عليهما فيه التّكليف ،وقد يكون هذا مرجّحا، والله أعلم.

والأمر الثّاني[1]: تخوّفه أن تخترمه المنيّة قبل أن يسدي إليهما هذا النّصح العظيم، لأنّه قد شعر بدنوّ أجله، والمسلم ينبغي له أن يكون مستعدّا للموت دائما « إِذَا أَمسَيتَ لاَ تنتَظِرِ الصَّبَاح، وإِذَا أَصبَحت فَلاَ تنتظِرِ المَسَاء، وصلِّ صَلاَة مودِّع» كما يقول "عبد الله بن عمر" – رضي الله عنه –، وفي الحديث

[1] جاء في كلام الشّيخ (السّبب الثّاني)، وجعلتها (الأمر الثّاني) لتتناسب مع الأوّل.

((كُن فِي الدّنيَا كأنَّكَ غَرِيبٌ أَو عَابِرُ سَبِيل)) فعلينا أن نتنبّه لمغزى هذه الوصيّة، وللأسباب التي جعلته يقوم بها، وأن يحذو حذوه كلّ واحد منّا مع بينه، وأولاده، وأحفاده، وبناته، وأسرته شعورا بالمسؤوليّة، لأنّ ((كلّكُم راعٍ وكُلُّكم مَسئُول عن رعيَّتِه)).

قال –رحمه الله –:

فَإنْ أنْسَأَ اللهُ تعَالى في الأَجَل، فَسَيتَكَرَّرُ النُّصحُ وَالتَّعلِيم وَالإرشَاد وَالتَّفهِيم، وَمَا تَوفِيقِي إلاَّ بِالله، عَلَيهِ تَوكَّلتُ وَعَليهِ فَليتَوكَّلِ المتَوَكِّلُون، بَيدِهِ قُلوبُكُما وَنَواصِيكُما.

وَإنْ حَالَ بَيني وَبَينَ ذَلكَ مَا أتوَقَّعُه وَأَظنُّه مِن اقتِرابِ الأَجلِ، وَانقِطَاعِ الأمَلِ، فَفِيمَا أرسُمُه مِنْ وَصِيَّتي وَأبيِّنُه مِنْ نَصِيحَتي مَا إنْ عَمِلتُمَا بِه، ثَبُتُّمَا عَلى مِنهَاج السَّلَف الصَّالح، وَفُزتُما بِالمتجَرِ الرَّابِح، وَنِلتُمَا خَيْر الدُّنيَا وَالآخِرَة، وَأستَودِعُ اللهَ دِينَكُما ودُنيَاكُمَا، وَأستَحفِظُه مَعَاشَكُما وَمَعادَكُما، وَأُفوِّضُ إلَيه جَميعَ أحوَالِكُما، وَهُو حَسبي فِيكُما ونِعمَ الوَكِيلُ.

هنا يستدرك الشّيخ – رحمه الله – "الباجي" يقول : أنا أمام حالتين،

- إن مدّ الله في أجلي، وطال عمري بحسب تقدير الله جلّ وعلا، فإنّي سأتعاهدُكما بنصائح أخرى ، ووصايا ثمينة أخرى، ولن أقتصر على هذه الوصيّة، شعورا بالمسؤوليّة اتجاهكما.
- وإن قدّر الله عليّ أجلي فإنّ في هذه الوصيّة من الأمور العظام، والمسائل الجِسام، ما إن عملتم به فزتم بالدّنيا والآخرة، لأنّها تتضمّن أمورا من حققّها سعد في دنياه وآخرته؛ لأنّها تتضمّن الأعمال التي تؤهّل للآخرة ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:97].

فلذلك وعد أن يتعهّدهما بالنّصح ما دام حيّا، فإذا قدّر الله عليه أجله؛ لأنّ الآجال بيد الله ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: 34] فإنّه يستودعهم الله، ويتوكّل عليه بشأنهما، ومن توكّل على الله كفاه ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:3]، عليه يتوكل المتوكّلون، وبه يعتصم المعتصمون، وإليه يلجأ اللاّجئون.

فقد استودع من إذا استُودِع حفظْ – سبحانه وتعالى –، وإنّما يحفظ تلك الوديعة إذا قامت تلك الوديعة بحفظ الله ((يَا غُلام، إحفَظِ اللهَ يحفَظْك، إحفَظِ الله تَجدهُ اتجَاهك، تَعرَّف إلَى الله فِي الرَّخَاء، يَعرِفكَ فِي الشِّدَّة)) ثمّ استودعهما ربّه سبحانه وتعالى الذي لا تضيع ودائعه، وبيّن أنّ التّوفيق بيد الله عزّ وجل، الذي يهدي من يشاء فضلا، ويضلّ من يشاء عدلا، لا رادّ لقضائه ، ولا معقّب لحكمه.

قال –رحمه الله –:

لا أحد أنصح للولد من والده

وَاعلَمَا أنْ لاَ أحَدَ أنصَحَ مِنِّي لَكُما، وَلاَ أشفَقَ مِنِّي عَليكُما، وَأنَّه لَيسَ في الأَرضِ مَنْ تَطِيبُ نَفسِي أنْ يَفضُلَ عَليَّ غيْرُكُما، وَلاَ أرفَعُ حَالاً في أَمرِ الدِّينِ وَالدُّنيَا سِواكُمَا.

يعني يبيّن – رحمه الله – أنّ النّصيحة واجبة على كلّ والد، نحو المسلمين جميعا، ونحو أولاده من باب أولى، ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:214]، وانظروا إلى وصيّة النّبي – صلّى الله عليه وسلّم – لأقاربه، عندما دعاهم إلى دين الله الحق، بدأ بالعشيرة لّما نزلت الآية﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾، صعد – صلّى الله عليه وسلّم – المنبر ، فقال : ((يَا مَعشَرَ قُرَيش ، يا بَنِي فِهر، با بني فلان، يا بني فلان ، لاَ أُغنِي عَنكُم مِنَ الله شيئًا، يَا بَنِي هَاشِم لاَ أُغنِي عَنكُم مِنَ الله شيئًا، يَا العبَّاس [من هو العبَّاس ؟ عمّ رسول الله – صلَّى الله عليه وسلّم –] لاَ أُغنِي عَنكُم مِنَ الله شيئًا، يا صَفِيَّة عمَّة رسُول الله– صلَّى الله عليه وسلّم – لاَ أُغنِي عَنكِ مِنَ الله شيئًا، يَا فَاطِمَة بنتَ مُحمَّدٍ – صلَّى الله عليه وسلّم – سليني مِن مَالي مَا شِئتِ، لاَ أُغنِي عَنكِ مِنَ الله شيئًا))

فالأقربون أولى بالمعروف ، وأولى الأقربين هم من؟ الأبناء، الأولاد والبنات ، هم أَولى الأقربين، ولذلك بيّن – رحمه الله – أنّه لا يفضّل عليهما أحدا، ولا يحبّ أن يفضُلهُ غَيرهما، يعني الابن الآن المسلم دائما يحب أن يكون ولده خيرا منه، ربّما يحُوك في نفسه أن يكون غيره خيرا منه من سائر النّاس، لكن يفرح ويغتبط إذا كان أبناؤه خيرا منه وأفضل منه.

ولذلك قال :(إنِّي لا أُوثِر عليكمَا أحدا)، في أمور الدّين والدّنيا، لأنّكما فِلذة كبدي، وقرّة عيني، وذخرا لي بعد مماتي. لعلّه تذكّر والحال هذه قول النّبي – صلّى الله عليه وسلّم –: ((أَو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدعُو لَهُ)) في الحديث الصّحيح ((إذَا مَاتَ ابنُ آدَمَ انقَطَعَ عملُهُ إلاَّ مِن ثَلاث؛ صَدَقَةٍ جَارِية، أَو عِلمٍ يُنتفعُ بِه، أَو وَلَدٍ صالِحٍ يَدعُو له))، فأوصاهما بهذه الوصيّة العظيمة.

قال – رحمه الله –:

وجوُب طَاعةِ نُصحِ الأب:

وأقلُّ مَا يُوجِبُ ذَلكَ عَليكُمَا أَن تُصيخَا[1] إلَى قَولِي، وتتَّعِظَا بوَعظِي، وتتفهَّمَا إِرشَادِي

[1] قال الشيخ حفظه الله ((أصلحوها في الطّبعة التي عندي مكتوب (أن تُصخِيَا) أصلحوها (أن تُصيخَا).

ونُصحِي، وتتيقَّنَا أنِّي لَم أنهكُمَا عَن خَير، وَلاَ أمرتُكُمَا بِشَر، وتَسلُكَا السَّبِيلَ التِي نهجتُهَا، وتتمثَّلاَ الحَالَ التِي مثَّلتُهَا.

هنا يبيّن لهما وجوب قبول الولد لنصح الوالد، وأنّ ذلك من طاعة الله جلّ وعلا، لاسيما إذا كان الوالد عالما من علماء المسلمين الذين رزقهم الله العلم النّافع، والعمل الصّالح، فيقتدون به، فيكون قدوة صالحة لهم، لأنّهم محَّضهم النّصح، وطلب منهم أن يعملا به.

ويقول إنّني نصحتكما ابتغاء وجه الله، من أجل أن تكونا على الجادّة، على الصّراط المستقيم الذي كان عليه رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – وصحبه الكرام. وأعظم نصيحة وأخلص نصيحة هي ما يقدّمها الوالد لبنيه، فعليهم أن يقتدوا به إذا كان من أهل العلم العاملين بعلمهم:

بِأبِهِ اقتَدَى عَدِيٌّ فِي الكَرمْ **** ومَن يُشَابِه أَبَاهُ فَمَا ظَلَمْ

لاسيما إذا كان الأب ممّن يُقتدى بهم، ونحسب أنّ ذلك العالم الجليل على هذه الحال، فينبغي التأسّي به وبأمثاله من علماء المسلمين الربّانيّين الذين يقضون بالحقّ وبه يعدِلون.

قال –رحمه الله –:

صلاح أهل بيت المؤلف

وَاعلَمَا أَنَّنَا أَهلُ بَيتٍ لم يَخْلُ بِفَضلِ اللهِ مَا انتهَى إلَينَا مِنهُ مِنْ صَلاَحٍ وَتَدَيُّنٍ وَعَفافٍ وَتَصَاوُنٍ، فَكَانَ بَنُو أَيُّوبَ بنِ وَارثٍ، عَفَا الله عَنَّا وعَنهُم أَجمعِين: جَدُّنا سَعد، ثمَّ كَانَ بَنُو سَعدٍ: سُليمانَ وَخَلَف وَعَبدَ الرَّحمَن وأَحمَد.

وَكَانَ أَوفرُ الصَّلاَحِ والتَّدَيُّنِ والتَّورُّعِ وَالتعبُّدِ فِي جدِّكم خَلَف؛ كَانَ مَع جَاهِه وحَالِه واتِّسَاعِ دُنيَاه، مُنقَبِضاً عَنهَا، مُتقلِّلاً مِنهَا، ثمَّ أقبَلَ عَلَى العِبَادَةِ والاعتِكَاف إلَى أَن تُوُفِّي رَحمَه الله.

أخوة المؤلِّف

ثمَّ كَانَ بَنُو خَلَفٍ: عَمَّاكُما عَليٌّ وعُمرُ، وأَبُوكُما سُلَيمانُ، وَعَمَّاكُما محمَّد وَإبرَاهِيم، فَلَم يَكُن فِي أَعمَامِكُما إلاَّ مَشهُورٌ بِالحَجِّ والجِهَاد وَالصَّلاَح وَالعَفَاف، حَتى تُوُفِّي مِنهُم عَلَى ذَلِكَ، عَفَا اللهُ عَنَّا وَعَنهُم.

وَكَأَنَّني لاَحِقٌ بهِم وَوَارِدٌ عَلَيهِم، وَبَصِير الأَمرُ إلَيكُمَا، فَلاَ تَأخُذَا غَيْرَ سَبِيلِهم، وَلاَ تَرضَيا غَيْرَ أحوَالِهم، فَإنِ استطَعتُما الزِّيَادةَ، فَلأنفُسِكُما تُمَهِّدَان، وَلها تَبنِيَان، وَإلاَّ فَلا تَقصُرا عَن حَالِهم.

يبيّن المصنّف –رحمه الله تعالى – من ينبغي أن يُقتدى بهم، ويُذكِّرهم بأنّ أسرتهم أسرة علم ، وفضل وخير، ابتداء من آبائهم بني أيّوب، إلى جدّهم "خلف"، إلى أعمامهما، وعدّ نفسه منهما ولعلّه كذلك إن شاء الله تعالى، عدّ نفسه منهم وهذا من باب إحسان الظنّ بالله عزّ وجل، والثّقة به والرّجاء فيه، وليس من باب تزكية النّفس، وإنّما من باب الرّجاء في أن يموت على ما مات عليه أبوه وإخوته من خير وصلاح، لأنّه لا يعلم عنهم إلاّ خيرا. ويطلب من ولديه أن يتمثّلا بهذه القدوة الصّالحة.

ومن فضل الله على المسلم أن يولد في بيت علم وفضل وخير، فإنّ ذلك يجعله يُحاط بإذن الله تعالى بعناية ورعاية فائقة؛ تربّيه على التّقى، وتربّيه على العلم النّافع، والعمل الصّالح، وذكر ما لأعمامه من حرص على الحجّ والجهاد، وأعمال الخير الأخرى فإنّ ذلك من أجلّ الأعمال، وسيأتي تفصيلنا في مسألة الحج والجهاد أثناء الوصيّة، أثناء الوصايا ليست وصيّة واحدة؛ لكن المهم هنا أنّه بيّن لهما القدوة الصّالحة التي ينبغي أن يقتديان بها.

فمن فضل الله على المرء أن يرزقه بيت علم وفضل ينشأ فيه ، وهذا يذكّرنا بأُسر مباركة جاءت بعده وبعد ابنيه، مثل أسرة شيخ الإسلام "ابن تيميّة"، وشيخ الإسلام "ابن القيّم"، وشيخ الإسلام "محمد بن عبد الوهّاب"، فكلّها أُسر علم وفضل، أعطاهم الله عزّ وجلّ من الفضل والعلم والخير والسّؤدد ما فاقوا به غيرهم، وما بزّوا به أقرانهم، بفضل الله أوّلا ثمّ بفضل العلم الشّرعي الذي ساروا عليه، ثمّ بفضل تمسّكهم بكتاب الله جلّ وعلا وسنّة رسوله – صلّى الله عليه وسلّم –،

مَن يَفعلِ الخَيرَ لاَ يعدَم جَوازِيَهُ **** لاَ يَذهبُ العُرفُ بينَ اللهِ والنَّاسِ

فانظروا الأسر الطيّبة،

وهل يُنبِتُ الخَطِيُّ إلاَّ وَشِيجهُ**** وتُغرسُ إلاَّ في مَنابتِهَا النَّخلُ

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾ [الأعراف:58] انتبهتم لهذا. فهذا مثال عظيم لمن يجب الاقتداء بهم :

فَتَشَبَّهُوا إن لَم تَكُونُوا مِثلَهُم *** إنَّ التشبُّهَ بِالكِرَامِ فَلاحُ

بل حثّهم على أن يجتهدوا في أن يزيدوا من الخير على هؤلاء الذين ذكرهم، لأنّ الزّيادة أفضل وأعظم، وكما قال هو، إنّه لا يحبّ أن يفضُله أحد غيرُ بنيه، وهذه سنّة الله في خلقه، يحبّ المرء من ولده أن يفضُله، وأن يكون خيرا منه، بينما يودّ هو أن يسبق أقرانه وأن يسبق غيره.

قال –رحمه الله –:

أول الوصايا: الإيمان بالله

وَأَوَّلُ مَا أُوصِيكُما بِه مَا أَوصَى بِه إبرَاهِيمُ بَنِيه وَيعَقُوبُ: ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: 132]. وَأَنهَاكُما عَمَّا نَهَى عَنهُ لُقمَانُ ابنَه وَهُوَ يَعِظُه: ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: 13]، وَأُؤَكِّد عَلَيكُما فِي ذَلِكَ وَصِيَّتِي، وَأُكَرِّرُها حِرصاً عَلَى تَعلُّقِكُما وَتمسُّكِكُما بهذَا الدِّين الذِي تَفَضَّل اللهُ تَعَالى عَلَينَا بِه، فَلاَ يَستَزِلَّكُما عَنهُ شَيء مِن أُمُور الدُّنيَا، وَابذُلاَ دُونَه أَروَاحَكُما، فَكَيفَ بِدُنيَاكُما؟ فَإِنَّه لاَ يَنفعُ خيْرٌ بَعدَه الخُلودُ فِي النَّارِ، وَلاَ يَضرُّ ضَيْرٌ بَعدَه الخُلُودُ فِي الجَنَّة. ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: 85].

هذه وصيّة عظيمة، بل هي أساس كلّ الوصايا القادمة وقُطب رَحاها، وذلك لأنّه أمر ابنَيه بالإيمان بالله جلّ وعلا، والإيمان بالله كلمة جامعة.

وتعريف الإيمان:

في اللّغة: هو الإقرار، وليس مجرّد التّصديق؛ لأنّ الإقرار يشمل التّصديق وزيادة، ومن أراد التوسّع في ذلك فليرجع إلى كتاب (الإيمان) لشيخ الإسلام "ابن تيميّة" في ردّه على "الباقلاّني" الذي ادّعى بأنّ الإيمان مرادف للتّصديق، وقد اختصر ذلك في جملة مفيدة، أخونا الشّيخ الدّكتور "عبد الرزاق البدر" –حفظه الله تعالى – في كتابه (زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه) فليُراجع.

أمّا **تعريفه شرعا:** فهو قول باللّسان، وتصديق بالجنان –وهو القلب –، وعمل بالأركان – وهي الجوارح –، فالإيمان قول وعمل يزيد بالطّاعة وينقص بالمعصية، هذا هو تعريف السّلف، ولذلك يقول الإمام "البخاري": « أَدركتُ ألفًا منَ العُلمَاء يقُولونَ: الإيمَانُ قَولٌ وعمَل. » ، ويقول "سفيان بن عُيينة" – رحمه الله –: «أدرَكتُ اثنَينِ وستِّينَ عالِمًا يقُولُون:الإيمانُ قولُ وعَمل. ».

وهل هناك تعارض بين من يقول من السّلف (الإيمانُ قَول وعَمل)، وبين من يقول (الإيمانُ قولٌ وعملٌ واعتقَاد) ؟، من يجيب ويأخذ إحدى هذه الجوائز ؟

أقول سمعتُم الآن منّي كلام السّلف أنّ منهم من يقول (الإيمان قول وعمَل)، وهناك من يعبّر فيقول (الإيمانُ قولٌ وعملٌ واعتقَاد)، فهل هناك تعارض بين هذين القولين ؟[1]

[1] في هذه المحاورة بين الشّيخ والطلاّب لم أثبت كلّ ما قاله، لأنّ الشيخ – حفظه الله – كان يختار المُجيب عن السّؤال، الذي لم تكن إجابته مسموعة في غالب الأحيان، فأثبتّ فقط إجابة الشّيخ الصّحيحة عن السّؤال المطروح.

الجواب:

القول: يشمل قول اللّسان وقول القلب، **والعمل:** يشمل عمل القلب، وعمل اللّسان، وعمل الجوارح.

طيّب سؤال آخر يتعلّق بهذا، **ما هو قول القلب، مع الدّليل؟**

سمعتم إجابة أخيكم يقول لا تعارض بينهما، لأنّ الذين قالوا الإيمان قول وعمل يقصدون أنّ الإيمان يشمل قول القلب،و قول اللّسان، والعمل يشمل عمل القلب، وعمل اللّسان وعمل الجوارح، السّؤال هنا أوّلا :

ما المقصود بقول القلب ؟ وما الدّليل ؟

الجواب:

قول القلب مثاله حديث ((مَن قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ صَادقًا أَو خَالِصًا مِن قَلبِه دخل الجَنَّة))

طيّب فيه آية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾[التوبة:119]، أيضا آية في الحجرات ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: 15]

السّؤال الذي بعده: **مثِّل لقول اللّسان من القرآن والسنّة ؟**

الدّليل على قول اللّسان، قول اللّسان النطق بإيش؟.

الجواب:

فيه حديث صريح، حديث "عُبادة" : ((مَن شَهِدَ أنَّ لاَ إِلَه إلاَّ اللهُ، وأنَّ محمَّدا عبدُ اللهِ ورَسُوله، وأنَّ عِيسَى عبدُ اللهِ ورَسُوله وكلِمتُهُ ألقَاهَا إلى مَريمَ ورُوحٌ منه ...)) إلى آخر الحديث.

السّؤال الذي بعده: عمل القلب، **من يعرّف عمل القلب؟ ويستدلّ عليه ؟**

الجواب:

الحياء ، أحسنتم، أيضا من أعمال القلوب: التوكّل، والمحبّة، والخشوع، والخضوع، والرّجاء، والخوف.كل هذه أعمال القلب.

هناك ثلاثة أعمال لا يتمّ الإيمان إلاّ باجتماعها في القلب ؟

ثلاثة أعمال من أعمال القلوب لا يتمّ الإيمان إلاّ باجتماعها في القلب، ويسمّيها العلماء ماذا ؟

اسمها أركان العبادة القلبيّة، ما هي ؟

الجواب:

هي الحبّ (المحبّة) والخوف والرّجاء، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:90]

إذن عرفنا أيّها الإخوة، عرفنا تعريف الإيمان، وأنّه لا تعارض بين أقوال السّلف الذين قالوا (الإيمانُ قولٌ وعمل)، فإنّه نفسه قول من قالوا (الإيمانُ قَولٌ وعملٌ واعتقَاد)، وقد بُيِّن المقصود من ذلك. والإيمان يزيد وينقص ، يزيد بالطّاعة وينقص بالمعصية.

ومن قال: (إنّ الإيمان قول وعمل واعتِقَادٌ، يَزِيدُ بالطَّاعةِ ويَنقصُ بالمَعصِيةِ) فقد سلِم من قَولي المرجِئة الإباحيَّة، والخوارج التكفيريّة. ولا يلزمه وراء ذلك شيء ممّا يتكلّف به بعض المتكلّفين، وبعض المتحذلقين، وامتحان النّاس ببعض الألفاظ التي تحصل في السّاحة من بعض النّاس.

أقول وأكرّر من اعتقد أنّ (الإيمان قولٌ وعملٌ واعتقادٌ يزيدُ وينقُص) وطبّق مُقتضى ذلك، فقد سلم من منهج الخوارج المارقة، ومنهج المرجئة الإباحيّة، فهمنا هذه خذوها قاعدة، بدلا من أن يُخاض بجعجعة أشبه ما تكون بالتكلّف والتصنّع الذي ما أنزل الله به من سلطان، فهمنا هذا . فإيّاكم وامتحان الشّباب والمسلمين ببعض الكلمات المحتمِلة، وبعض الألفاظ التي يُغني عنها كلام السّلف (الإيمان قولٌ وعملٌ واعتقادٌ يَزِيدُ بالطَّاعةِ ويَنقُص بِالمَعصِيةِ) من قال ذلك وفهمه وطبّقه فقد اتّبع منهج السّلف، وسلم من عُهدة الإرجاء والتّكفير.

ثمّ بيّن بعد أن حثّهم على الإيمان، حثّهم ابنَيه على الإيمان بالله جلّ وعلا، بكلّ ما تحمله كلمة الإيمان من معنى. والإيمان يشمل الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرّه، وسيأتي مزيد من التّفصيل في ذلك.

ثمّ حذّرهما ممّا يُضادُّ الإيمان ألا وهو: الشّرك، واستدلّ على الإيمان بقول يعقوب لبنيه ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:132] ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَـهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:133] هذا هو الإيمان،وتفاصيل بعض المسائل قد تأتي أثناء هذه الوصيّة – إن شاء الله تعالى –

ثمّ حذّرهم ممّا يّضادّه وهو الشّرك لأنّه لا إيمان بلا براءة من الشّرك، لا ولاء بلا براء ، ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ﴾ [البقرة:265] لا يصحّ التّوحيد إلاّ بالكفر بما يُضادّه وهو الشّرك، واستدلّ على ذلك بتحذير لقمان لابنه ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان:13] وهو أعظم ذنب عُصي به الله جلّ وعلا، فمن يدّعي الإيمان وهو يتعلّق بالأصنام والأوثان وأصحاب القبور، يدعوهم من دون الله، ويسألهم قضاء الحاجات، وكشف الكربات وإزالة الملّمات، فلا قيمة لدعواهُ الإيمان ، لأنّه ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ [النحل: 92] تماما، نقض ما أبرم، وهدم ما بنى، وقوّض ما أسّس.

أقول هذا الكلام لأنّ كثيرا من النّاس في هذا العصر يدّعون الإيمان،و هم ينطبق عليهم قول الله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف:106]، وقوله جلّ وعلا ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف:103]، ولتوضيح المسألة أوجّه هذا السّؤال:

من يؤمن بالأركان الستّة في الظّاهر، ويؤدّي الأركان الخمسة ثمّ يأتي إلى ميّت في قبره، ويمدّ يده إليه، ويقول له: اغفر لي يا فلان، أعطني يا فلان، مدد يا فلان، أنا في حماك يا فلان، أغثني يا حسن، يا حسين، يا نقشبندي، يا شاذلي، يا بدوي، يا مرسي، يا جيلاني، يا زيد، يا عمرو، هل يُعدّ مؤمنا ؟ ولو أدّى ما أشرت إليه من المباني، أجيبوا لماذا ؟

الجواب:

﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:72] ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:88]، ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(65) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر:65- 66] ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:23]

أنبّه على هذا الكلام لأنّ كثيرا من واقع العالم الإسلامي اليوم يعيش هذه الحال، يُصلّون ويُزكّون، ويصومون، ويحجّون، وهم ليس لهم من ذلك إلاّ التّعب والخسران، فمن صام وصلّى وزكّى وحجّ، وفعل ما فعل من الأعمال، وهو يمدّ يده إلى الموتى في قبورهم، أو إلى الأحياء يخضع لهم، وينكسر بين يديهم، ويسألهم قضاء الحاجات وكشف الكربات، وإزالة الملِمّات، ويطلب منهم المدد والمغفرة، ويطلب منهم كشف الضرّ أو جلب الخير، فلا قيمة لعمله الذي يعمل، ولو أتى بعمل أمثال الجبال، فإنّها حابطة لا قيمة لها.

ولا تغترّوا ببعض الأشرطة التي توزّع لبعض الجهلة دعاة الشّرك الذين يهوّنون من هذه المسألة، ويدّعون أنّها لا تعدو أن تكون توسّلا بأولئك الأموات، وهو واللهِ الشّرك بعينه الذي لا يقبل الله من صاحبه صرفا ولا عدلا، يقول صاحب أحد هذه الأشرطة من دعاة الشّرك، يقول: «إنّ هؤلاء الذين يَنهوَن عن التقرُّب والتوسُّط بعبَاد الله الصَّالِحين على غَيرِ هُدى، وليسوا بصادِقين [يقول] إنّ اللهَ أمرنَا بالتوسُّط بالجَمادات، ألاَ يدلُّ ذلك على جواز التوسُّط بعبَاد الله المُقرّبين والمُؤمنين والصّالحين.»
يقول هذا المشرك وداعية الشّرك يستدلّ على ذلك بالطّواف بالكعبة، وبالمبيت بمنى ومزدلفة، وبالوقوف بعَرفة، وبالسّعي بين الصّفا والمروة هل هذه الأماكن مقصودة لذاتها، أم هل نحن نطلب شيئا منها من دون الله جلّ وعلا، أم نتأسّى في ذلك بنبيّ الهدى – صلّى الله عليه وسلّم –، ونمتثل أمر

القرآن ﴿ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة:158] ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج:29]، ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾[البقرة:199] ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾[1] [البقرة:198] هل قال: اسألوها قضاء الحاجات وكشف الكربات ؟، هذا الذي يمثّل بهذه الشّعائر الدّينيّة فإنّ الشّعائر لا تقصد لذاتها ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ [الحج:37]، جاء "عمر بن الخطّاب" – رضي الله عنه – يُقبّل الحجر الأسود فقال – رضي الله عنه –:« إِنِّي أعلمُ أَنَّكَ حَجرٌ لا تضُرُّ وَلا تَنفَع، وَلَولاَ أَنِّي رأيتُ رسُولَ الله – صلّى الله عليه وسلّم – يُقبِّلكَ مَا قبَّلتُك» ، فماذا يقول داعية الشّرك هذا في مثل هذا النصّ.

إنَّمَا نطوف بالبيت، ونسعى بين الصّفا والمروة، ونبيت بمنى، وبالمزدلفة ونقف بعرفة تأسّيا واقتداء بالحبيب المصطفى – صلّى الله عليه وسلّم –، امتثالا لأمر الله تبارك و تعالى ربِّنا، ولأمر نبيّنا وحبيبنا محمّد – صلّى الله عليه وسلّم –، فماذا بعد الحقّ إلاّ الضّلال ؟

كيف يسوغ أن توزّع أشرطته وتُباع في بعض تسجيلاتنا التي تسمّى تسجيلات إسلاميّة، وهي تدعو إلى الشّرك، انتبهوا لهذا الأمر فإنّه في غاية من الخطورة، وأخلصوا أعمالكم لله، واعلموا رحمني الله وإيّاكم أنّ الشّرك الأكبر يُبطل العمل جُملة وتفصيلا، ولا يقبل الله من صاحبه صرفا ولا عدلا، وقد سمعتم الأدلّة على ذلك، فلا داعي لتكرارها، فلا يصحّ الإيمان إلاّ البراءة من الشّرك وأهله.

قال –رحمه الله–:

رجاء الجنة لمن آمن بهذا الدين

فَإِنْ مِتُّمَا عَلَى هَذَا الدِّينِ الذِي اصطَفَاهُ اللهُ وَاختَارَهُ وحَرَّم مَا سِوَاه، فَأرجُو أَن نَلتَقِيَ حَيثُ لاَ نَخافُ فُرقَةً، وَلاَ نَتَوَقَّعُ إزَالَةً. وَيعلَمُ اللهُ تعَالى شَوقِي إِلَى ذَلكَ وَحِرصِي عَلَيهِ، كَمَا يَعلَم إشفَاقِي مِنْ أَنْ تَزِلَّ بِأحَدِكُما قَدمٌ، أَو تَعدِلَ بِه فِتنةٌ، فَيَحِلَّ عَلَيهِ مِنْ سَخَطِ اللهِ تَعَالى مَا يُحِلُّه دَارَ البَوارِ، وَيُوجِب لَه الخُلُودَ فِي النَّارِ، فَلاَ يَلتَقِي مَع المؤمِنِينَ مِنْ سَلَفِهِ، وَلاَ ينفَعُه الصَّالحُون مِنْ آبائِه يَومَ لاَ يُغني﴿وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [لقمان: 33].

يوصي بنيه أو ابنيه رحمهما الله، ورحمنا معه وجميع المسلمين، بأن يثبتا على هذا الدّين، والثّبات على الدّين هو رأس المال والمكسب، وهو الدّين الذي لا يقبل الله دينا سواه، قال الله تعالى ﴿إِنَّ

[1] قال الشّيخ – حفظه الله –، ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾، والصحيح ما أثبته .

الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾ [آل عمران:19]، وقال جلّ وعلا: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران:85]، ذلكم الدّين القيّم الذي لا يقبل الله دينا سواه، ويبيّن لابنَيه أنّهما متى ثبتا على هذا الدّين فازا بجنّات النّعيم، وفازا برضا رب العالمين وأنّه من رضي الله عنه أدخله جنّته، ومن أدخله جنّته فإنّه لا يضلّ ولا يشقى، ولا يموت ولا يعرى، ولا يضحى ولا يظمأ، بل هو في سعادة أبديّة سرمديّة لا نهاية لها خالدين فيها أبدا.

و ذكر–رحمه الله – شوقه إلى اللّقاء بأحبابه في ذلك المكان، وهو الشّوق إلى لقاء الله سبحانه وتعالى، قال رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم –: ((من أحبَّ لِقَاءَ الله أحبَّ اللهُ لِقَاءَه،و من كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ اللهُ لِقَاءَه))، وقال – صلّى الله عليه وسلّم – في الدّعاء المشهور الذي يقال في نهاية التشهّد الأخير الذي جاء فيه، لعلّي أذكره كلّه ((اللَّهُمَّ بِعلمِكَ الغَيب، وقُدرتِكَ علَى الخَلق، أحيِنِي مَا علِمتَ الحَياةَ خَيرًا لِي، وتوفَّنِي إذَا علِمتَ الوَفاةَ خيرًا لِي، اللهمَّ إنِّي أسأَلُكَ خَشيَتَك فِي الغَيبِ والشَّهادَة، وأسأَلُكَ كَلِمَة الحقِّ فِي الغَضبِ والرّضَا، وأسأَلُكَ القَصدَ فِي الفَقرِ والغِنَى، وأَسأَلُكَ نَعِيمًا لاَ ينفَد، وأسأَلُكَ قُرَّةَ عَينٍ لاَ تنقَطِع، وأسأَلُكَ الرِّضَا بَعدَ القَضَاء، وَأسأَلُكَ بردَ العيشِ بَعد المَوت، وأسأَلُكَ لذَّة النَّظرِ إلَى وَجهِك،و الشَّوقَ إلَى لِقَائِكَ [وهذا هو الشّاهد]، فِي غَيرِ ضرَّاءَ مُضِرَّة، ولاَ فِتنةٍ مُضِلَّة، اللهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَان واجعَلنَا هُدَاةً مُهتَدِين))

فإذن لابدّ من الحرص على ذلك، فكما أنّه حريص على ذلك يرجو أن يلقى أبناءه على هذه الحال، ويُحذّرهم من الحال المضادّة التي تورد أصحابها دار البوار، وتوردهم جهنّم وبئس القرار، وتُبعدهم عن مغفرة العزيز الغفّار، نعوذ بالله وإيّاكم من هذا المصير الذي هو بئس القرار.

فعلينا أن نتأسّى بهذه الوصيّة، وأن نحرص على كلّ ما من شأنه أن يُوصلنا إلى مرضاة الله جلّ وعلا، وإلى جنّات النّعيم، وأن نبتعد عن كلّ عمل يُبعد عن الله، ويُبعد عن الجنّة، ويُبعد عن مرضاة الله عزّ وجلّ، على المسلم أن يقتنص كلّ فرصة وكلّ غنيمة تقرّبه إلى الله جلّ وعلا، فمن جدّ وجد، ومن زرع حصد، ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المزمل:20]

قال –رحمه الله –:

أقسام الوصية

وَتَنقَسِم وَصِيَّتي لَكُمَا قِسمَين:

فَقِسمٌ فيمَا يَلزَمُ مِن أَمرِ الشَّرِيعَة، أُبيِّنُ لَكُمَا مِنهُ مَا يجِبُ مَعرِفَتهُ، وَيكُونُ فِيهِ تَنبِيهٌ عَلَى مَا بَعدَهُ.

وَقِسمٌ فِيمَا يجِبُ أَن تَكُونَا عَليهِ فِي أَمرِ دُنيَاكُما ، وَتجرِيَان عَليهِ بيَنكُما.

بيّن – رحمه الله – أنّ وصيّته على قسمين لابنَيه،

القسم الأوّل[1]: ما يتعلّق بأمر الآخرة، وما يجب أن يفعلوه، وما يقرّبهم إلى الله جلّ وعلا من فعل المأمورات وترك المحظورات من السّير على هدي النّبي – صلّى الله عليه وسلّم –، واتّباع السّلف الصّالح، والبعد عمّا يُخالف ذلك من أمور الآخرة، التي هي حقيقةً امتثال الأوامر واجتناب النّواهي التي تقرّب إلى الله جلّ وعلا.

والقسم الثّاني: ما يتعلّق بأمور الدّنيا، و تنتج عنها سعادة أيضا في الآخرة، إذا اتّقوا الله تبارك وتعالى في هذه الحياة الدّنيا، واتّخذوها مطيّة إلى الآخرة ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [التوبة:38] فعلى المسلم أن يُعنى بأمر آخرته فلا يُؤثر عليها الحياة الدّنيا ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ [القصص:77]، ولا بأس أن يُعنى بأمور الدّنيا المباحة، ويتّخذها مطيّة إلى الآخرة، ولذلك قال بعد هذه الجملة في الآية الكريمة ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [القصص:77]

الأسئلة[2]:

أحسن الله إليكم وبارك فيكم ونفعنا بما سمعنا، وجعله في ميزان حسناتكم.

هذا سائل يقول شيخنا نحبّك في الله ونُشهد الله على ذلك، ونرجو منكم أن تخصّونا بالدّعاء بالمغفرة والثّبات

الشيخ: أحبّكم الله وغفر لنا ولكم وجميع المسلمين

س : يقول نرجو من شيخنا أن يسمّي لنا هذا الدّاعية بالشّرك، من أجل أن نحذره ويحذر النّاس منه.

ج: لعلّ من الأسلوب الأولى للدّعوة أن لا يُسمّى في هذا المقام، ولو لقيتني في الخارج سمّيته لك، ولكن أشرطته منتشرة.

س: سؤال عبر الشّبكة من المغرب، يقول ما رأي فضيلتكم في كتاب (صيد الخاطر) لـــ"ابن الجوزي"؟

---

[1] الشيخ قال (إحداهما)، وغيرها للتماشى مع ما بعدها.

[2] رمزت ب (س) للسؤال، و(ج) لجواب الشيخ.

ج: الكتاب كما تعلمون فيه فوائد، وفيه شطَحات، لا يقرؤه إلاّ طالب علم متمكّن، (صيد الخاطر) لـــ "ابن الجوزي" فيه فوائد، وفيه شطَحات وهي كثيرة، فلا ينبغي أن يقرأه إلاّ طالب علم متمكّن، يأمن على نفسه التضرّر بتلك الشّطحات.

س: أحسن الله إليكم، يقول: عندي تهاون في صلاة الجماعة، عندما أنام خصوصا، فما نصيحتكم وتوجيهكم لي ؟

ج : نصيحتي لك أن تتّقي الله عزّ وجلّ في صلاتك، وأن تعلم أنّ صلاة الجماعة فرض عين على كلّ مسلم عاقل بالغ ذكر مكلّف،و التّهاون في صلاة الجماعة خطير جدّا، وقد همّ النّبي – صلّى الله عليه وسلّم – أن يحرّق بيوت الذين يتخلّفون عن صلاة الجماعة، همّ أن يُحرِّق عليهم بيوتهم بالنّار، و لم يعذر الرّجل الأعمى الذي لم يجد قائدا، مع ما ذكر من أنّ المدينة كثيرة الهوام، قال له ((أَتَسمعُ النِّدَاء، قال: نَعم، قَال: فَلاَ أجدُ لَكَ رُخصَة)) وصحّ عن النّبي– صلّى الله عليه وسلّم – أنّه قال : ((من سَمِعَ النِّدَاء ثُمَّ لَم يأتِهِ، فلاَ صَلاَةَ لَهُ إلاَّ مِن عُذرٍ))، وقال "عبد الله بن مسعود": «ولَقَد رَأيتُنَا ومَا يَتخلَّفُ عَنهَا إلاَّ مُنَافِقٌ مَعلُومُ النِّفَاق» أي عن صلاة الجماعة، ولا يغرّنك بعض التّساهل أو بعض الفتاوى التي تقول إنّها مجرّد سنّة،

فَليسَ كلُّ خِلاَفٍ جَاءَ معتَبَرًا *** إلاَّ خِلاَفٌ لَهُ حَظٌّ مِنَ النَّظرِ

وأقترح عليك الابتعاد عن البيئة التي تُسبّب لك هذا الكسل، وأقترح عليك اختيار الرّفقة الصّالحة الذين يُعينونك على الخير ((مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ والجَلِيسِ السُّوءِ، كَحَامِلِ المِسكِ ونَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسكِ إمَّا أن تَبتَاعَ مِنهُ، وإمَّا أن يُحذِيَك، وإمَّا أن تَجِد مِنهُ رِيحًا طَيِّبة، ونافِخُ الكِيرِ إمَّا أن يُحرِقَ ثِيَابَك، وإمَّا أن تَجِدَ مِنهُ رِيحًا خَبِيثَةً.)) كما أقترح عليك قراءة كتب التّرغيب والتّرهيب الصّحيحة وتذكّر الآخرة دائما، وتذكّر بأنّك إذا نمت عن تلك الصّلاة، عن صلاة الفجر أو عن صلاة الجماعة ربّما كانت تلك النّومة هي النّهاية لك فتكون سوء خاتمة، تنبّه لهذا نسأل الله لنا ولك الثّبات على الحق.

س: أحسن الله إليكم، سؤال عبر الشّبكة من الجزائر، يقول هل يجوز العمل مع من يُشكّ في حِلِّ ماله ؟

ج: الأَولى هو البعد عنه، وخصوصا وإن كان من المسلمين، لأنّ العمل معه ربّما يكون إعانة له على فعل وأكل الحرام، وأقترح أن تكتب سؤالك مفصّلا بطبيعة هذا العمل، للّجنة الدّائمة للإفتاء، لعلّهم يفصّلون لك القول في ذلك.

س: أحسن الله إليكم، يقول ما حكم من لم يستطع غسل رجليه عند الوضوء، وهل يكفيه صبّ الماء عليهما ؟

ج: إذا كان ذلك لعجز جسدي و لم يجد من يغسلهما له، فيصبّ الماء حتّى يغلب على ظنّه أنّه قد غسل رجليه ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:16]، وأقترح عليه إذا كان ذلك نتيجة لعجز أن يتوضّأ وضوءا كاملا ثمّ يلبس خفّا أو جوربا، ويمسح عليه يوما وليلة إن كان مقيما، وثلاثة أيّام بلياليهنّ إن كان مسافرا، فإنّ في ذلك تيسيرا عليه.

س: يقول ما حكم مصافحة النّساء ؟

ج: حكم مصافحة النّساء محرّمة، الأجنبيّات وهنّ كلّ من يحلّ لك نكاحها ولو بعد حين، يعني ولو بعد طلاق بعض النّساء القريبات منها، ولو كانت خالتها –خالة زوجتك – أو عمّتها، لأنّها تحلّ لك في حال فراقك لتلك المرأة وانتهاء عدّتها، فيقول النّبي – صلّى الله عليه وسلّم –: ((لأَن يُطعَن أحدكُم بِمِخيَطٍ فِي رَأسِهِ، خيرٌ لَهُ مِن أَن يَمسَّ امرأَةً لاَ تحِلُّ لَه.)) ولّما جاء المؤمنات يبايعنه، وطلبت إحداهنّ منه أن يمدّ يده ليُصافحها قال لها ((إِنِّي لاَ أُصَافِحُ النِّسَاء))، وهذا تشريع لأمّته ((وَإِنَّ قَولِي لِإحدَاكُنَّ كَقولِي لِمِئةِ امرأَة)) فإيّاك يا عبد الله، وإيّاك يا أمة الله، أن تغلِب عليكما العادات والأعراف، والمجاملات في هذا الباب؛ لأنّ البعض من النّاس يقول نحن هذه عادة لا نستطيع التخلّص منها، فابنة عمّي، وابنة خالي، وابنة خالتي يغضبن إذا لم أُصافحهنّ، يقول النّبي – صلّى الله عليه وسلّم –: ((مَن أَرضَى اللهَ بِسخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنه وَ أرضَى عَنهُ النَّاس، ومَن أسخَطَ اللهَ بِرِضَى النَّاس سَخِطَ اللهُ علَيه، وَأسخَطَ علَيهِ النَّاس)) فإيّاك أن ترضي النّاس بسخط الله.

وإنّ المصافحة طريق المُسافحة، وبداية للمُسافحة، كيف ترضى يا عبد الله أن يضع رجل أجنبي يده في يد زوجتك أو ابنتك أو أختك أو أمّك، أو من لك ولاية عليها بحكم العادة، وتنظر إليها وهو يهشّ يدها، ويهزّ يدها وكأنّ الأمر لا يعنيك، أين غيرتك يا عبد الله ؟ والأدهى من ذلك وأمر أنّ البعض منّا مصاب بالتّقليد الأعمى والتشبّه بالكفّار، فإذا جاءه ضيف عزيز عليه أوّل ما يقدّم له زوجته، ويقول بلغة الإفرنج: المدام تريد تسلّم عليك، والعياذ بالله، المدام تريد تسلّم عليك زوجته، باللّغة لا أدري هل هي الفرنسيّة أم غيرها، المهمّ يعني هذا من التبعيّة ومن الخنوع ومن التشبّه، ومن تشبَّه بقوم فهو منهم. فاتّقوا الله عباد الله، واتركوا هذه العادات فإنّها عادات جاهليّة.

س: نختم بهذا السّؤال عبر الشّبكة من الجزائر، تقول السّائلة تقدّم لخطبتي رجل من المشتغلين بالرّقية، ولكنّ طريقته في الرّقية فيها غرابة، وهي أنّه يضع السِّواك على رأس المرقي ويبدأ بالرّقية، ويقول أنا سنّي ولست بسلفي، فما رأي فضيلتكم في الارتباط به؟

ج: هذا الرّاقي ارتكب بدعتين، وأحذّركم من كثير من الرّقاة، فإنّ كثيرا منهم ليسوا على هدي المصطفى – صلّى الله عليه وسلّم –، وإنّ من يتخّذ الرّقية مهنة فهو مبتدع، من اتّخذ الرّقية مهنة فهو مبتدع، كلمة أتقرّب بها إلى الله لأنّ هذا لم يثبت عن السّلف، وأمّا من طلب منه أخوه أن يرقيه فـــ((مَن استَطَاعَ أَن يَنفَعَ أَخَاهُ فَلْيَنفَعْهُ)) كما قال الصّادق المصدوق – صلّى الله عليه وسلّم –.

ومن بدع الرّقاة الرّقية الجماعيّة، ومن بدع الرّقاة ومعاصيهم دعوة النّساء إلى كشف وجوههنّ من أجل أن يتفُل عليها مباشرة، ومن خرافات الرّقاة إحضار جلود الذّئاب، أو إحضار شخص يُدّعى أنّ فيه جنيّا صالحا مسلما يُساعد على إخراج الجنّ، كلّ هذه خرافات ما أنزل الله بها من سلطان.

أمّا هذا الرّاقي الذي تشيرين إليه يا أختي السّائلة، فعنده مخالفتان:

المخالفة الأولى: وضعه السّواك على رأس المريض أو المريضة، فإنّ الرّاقي يمكن أن يرقي دون أن يضع شيئا لا يده ولا غير يده على جسم المريض.

وثانيا: التي هي أعظم منها، قوله إنّه سنّي وليس بسلفي، هذا قول متناقض، السنّي يا مسكين هو السّلفي، والسّلفي هو السنّي، ومن فرّق بينهما فقد فرّق بين المتماثلين، فالسّلف هم أهل السنّة، والسلفيّون هم أتباع السنّة، ومن تبرّم ذلك فليس بسنّي ولا سلفي، وكون البعض من النّاس يدّعي السلفيّة، وهو لا يمثّلها لا يبرّر لك أن تتبرّأ من السلفيّة بل يجب عليك أن تتشرّف باعتزائك إلى السّلف وإلى منهج السّلف، فإنّ الاعتزاء إل ذلك واجب، وأهل السنّة والسّلف وأتباع السّلف، والفرقة النّاجية، والطّائفة المنصورة، والجماعة، والسّلفي، والسنّي، هذه تعني مسمّى واحدا، هم الجماعة، هم من كان مثل ما كان عليه النّبي – صلّى الله عليه وسلّم – وأصحابه.

فكن سلفيّا على الجادّة، كن سلفيّا على الجادّة كما قال السّلف، سلفيّا معتزيا إلى منهج السّلف قولا وعملا واعتقادا، وأظنّ أنّ من تشدّق بهذا الكلام بعيد كلّ البعد عن المنهج السنّي الذي هو المنهج السّلفي، فابتعدي عنه ولا تقبليه إلاّ أن يتوب إلى الله من هذه الكلمات

وفّق الله الجميع للعلم النّافع والعمل الصّالح، وإلى لقاء الغد إن شاء الله، وصلّى الله وسلّم وبارك على نبيّنا محمّد وعلى آله....

تفريغ: أم مريم البتول

23 رجب 1430